سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

[وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]العصر:1-3.

1- [وَالْعَصْرِ]؛ يُقْسِم الربُّ سبحانه بالدَّهرِ؛ تكريماً وتشريفاً للزَّمانِ؛ لأنه مستودَعُ الأعمالِ، والأخبارِ، والعِبَر، إليه يُردُّ الربحُ والخسَارَةُ؛ فالخاسِرُ مَن خسرَ زمانَه، ووقتَه، وباعَه للشيطانِ بثمنٍ بخْسٍ، وأفرغَه من الأعمالِ الصَّالحةِ، ومِن الغاية العظيمةِ التي خُلِقَ لأجلِها .. وأملأه بالسيئاتِ، والأعمالِ الطَّالحةِ .. بينما الرابحُ هو الذي يملأُ زمانَه ووقتَه بالأعمالِ الصَّالحةِ، التي تنفعُه والآخرين في الدِّينِ، والدنيا، والآخِرَة .. ويحققُ الغايةَ من وجُودِه؛ وهي تحقيقُ العبادَةِ والتَّوحِيد.

2- [وَالْعَصْرِ]؛ الوقتُ كالكُوب يتَّسعُ لأعمالِ زمانِك المقدَّر وحَسْب؛ وأنت وما تُملئهُ؛ فإمَّا أن تملئه بالخيرِ والحسنَاتِ، وبما ينفعُكَ في دينِك ودُنياكَ، وإما أن تملئَهُ بالشرِّ والسيئاتِ، وبما يضرُّكَ في دينِك ودُنياك .. فانظرْ إلى كوبِك بما تملئُه، وبما تُلقِي فيه .. وما تدَّخره لآخِرَتِك!

3- [وَالْعَصْرِ]؛ أنتَ كما تتألَّفُ في جسدَكَ مِن جملةٍ من الأعضاءِ .. فإنَّك تتألفُ من جملةٍ من السنين والأيامِ، والساعَات .. وأنت تُساوِي زمانَك المكتوب والمقَدَّر .. طالَ أم قَصُر .. لن تتعدَّاه دقيقةً واحدة .. وفي الحديثِ، أنَّ رجلًا قالَ : يا رسولَ اللَّهِ أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قال: مَن طَالَ عمرُهُ ، وحَسُنَ عملُهُ ، قالَ: فأيُّ النَّاسِ شرٌّ؟ قالَ: مَن طالَ عمرُهُ، وسَاءَ عَمَلُهُ ". فالوقتُ ماضٍ ـ بكَ ومِن دُونِك ـ لا ينتظر أحَداً، ولَا يَستأذِنُه .. فاحرصْ على أن لا تهدُر وقتَكَ إلَّا فيما ينفعُك في دينِك ودُنياك .. إلَّا فِيما

يَسرك يومَ تبيضُّ وجُوهٌ وتسودُّ وجُوه .. ولو طُلِب مِنك أن تبيعَ عضواً من أعضاءِ جسَدِك لغاليتَ في السِّعر، ولربما لو مَلأوا لك الأرضَ ذَهباً لما وافقتَ .. بينمَا لو طُلِب مِنك أن تبيعَ سَنَةً من عمرِك مُقابل دراهِمَ مَعدُودَاتٍ لسارَعْتَ في البيعِ والموافقَةِ .. علماً أن هَذا بضْعُ مِنك، وهذا بِضعٌ مِنك .. وكان من السَّلفِ مَن يقول:" تَعلمتُ معنَى سُورةِ العصْرِ مِن بائعِ الثَّلجِ، كان يَصيحُ ويقُول: ارحمُوا مَن يَذُوبُ رأسُ مَالِه، ارحمُوا مَن يَذُوبُ رَأسُ مَالِه !"

4- [وَالْعَصْرِ]؛ أنتَ ـ بجسَدِك، ووقتِك، وبكلِّ مَا تملك ـ عبدٌ مملُوكٌ مخلُوقٌ للهِ .. لَسْت حُراً في أن تتصرَّفَ بوقتِكَ، ونفْسِك كيفَمَا تشاءُ بعيداً عن هَدي اللهِ تعالى .. وعن أمْرِه، ونهيِه .. فكَما ليسَ لك الحقُّ في أن تتصرَّفَ بجسَدِك، ومالِك إلَا وفقَ مشيئةِ اللهِ تعالى .. كذلك ليسَ لك الحقُّ في أن تتصرَّفَ بوقتِك إلَّا وفقَ مشيئةِ اللهِ، وحيثُ أمرَكَ اللهُ .. كما قال تعالى:[قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]الأنعام:162. لَا يكفِي أن تكونَ صَلاتُك، ونُسكُك للهِ ربِّ العالمين، إذْ لا بدَّ مع ذلك أن تكونَ حياتُك كلها ـ لا تخرجُ مِنها دَقيقةٌ واحِدَة ـ إلى لحظَةِ موتِك [لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]. وفي الحديثِ:" لَا تزولُ قدَما عَبدٍ حتى يُسألَ عن عمُرِه فيما أفناهُ ..". هل أفناهُ في طاعَةِ اللهِ، أم أفناهُ في معصيةِ الله؟! والمرءُ إذ يُسْألُ عن شيءٍ فإنَّه يُسألُ عن شيءٍ مُستأمن عليه لا يملِكُه على الحقيقَةِ، وليسَ له حقُّ التَّصرّفِ به كيفَمَا يَشَاء .. ومِن العبارَات الشِّرْكيَّة الدَّارِجةِ على ألسنةِ كثيرٍ مِن الناسِ، قولُ أحَدِهم: سَاعةٌ للهِ، وسَاعةٌ لغيرِه .. فهذا تعبيرٌ شركيٌّ خاطِئ؛ فالسَّاعاتُ كلها لله، بما في ذلك السَّاعَات التي تُصرَف لحقُوقِ النفسِ، وحقُوقِ الأهلِ، والناسِ .. فما دَامت تُصرَف وفقَ طاعَةِ الله، وطاعَةِ رسولِه صلى الله عليه وسلم، فهي كلُّها لله.

5- [وَالْعَصْرِ]؛ الدَّهرُ هو المساحةُ الزمانيَّة التي منَحَك اللهُ إيَّاها .. والتي تُجري فيها اختبارَك في هذهِ الحيَاة .. وهي مساحَةُ تَشرِيفٍ وتَكريمٍ لا عيبَ فِيها ولا نُقْصَان .. وإنما العيبُ يضافُ إلى العامِلِ فيها، وإلى الأعمالِ الخاطئةِ التي تجري فِيها .. كما قال تعالى:[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً]الفرقان:62. لا عيبَ في الليلِ والنهارِ .. وإنما العيبُ فِيمَن لا يريدُ أن يستثمرَ الليلَ والنهارَ في الذِّكْرِ، والشُّكْرِ .. وقد جاءَ النهيُ عن سبِّ الدَّهرِ؛ فإن كنتَ ساخِطاً يا ابنَ آدَم، فاسخَطْ عملَكَ القَبيح .. ولا تسخَطْ الدهرَ .. فلا عيبَ يَنالُ الدهْرَ إلى من جهةِ أعمالِنا الخاطِئة، وأنَّه مستودَعٌ لها .. كما في الحديث:" لا يَسُبُّ أحَدُكُمُ الدَّهْرَ؛ فإنَّ اللَّهَ هو الدَّهْرُ "مسلم. وفي الحديث القدسي:" قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: يُؤذِيني ابنُ آدَمَ؛ يَقولُ: يا خَيْبةَ الدَّهْرِ! فلا يَقُولَنَّ أحَدُكم: يا خَيْبةَ الدَّهْرِ؛ فإنِّي أنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ ونَهارَهُ، فإذا شِئتُ قَبَضْتُهما "مسلم. أي أنَّ اللهَ تعالى هو الذي خلقَ الدهْرَ؛ وقدَّرَ فيه المقادِيرَ .. يقلِّبُ ليلَه ونَهارَه .. فالدهرُ سببٌ مَن سَبَّهُ سَبَّ المسبِّبَ والخالِقَ له .. وهذا لا ينبغي ولا يُجوز!

وقد صدَقَ الشاعرُ:

نَعيبُ زَمانَنا والعَيبُ فِينا ... وَما لِزَمانِنا عَيبٌ سِوَانا

ونَهجُو ذَا الزمانِ بِغَيرِ ذَنبٍ ... وَلَو نَطَقَ الزمَانُ لَنا هَجانَا

6- [إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ]؛ أل الجِنْسية في كلمةِ " الإنسان "؛ تُفيدُ العُمُومَ، والشمُولَ، والاستغرَاقَ؛ أي جميعُ الناسِ، على اختلافِ ألوانِهم، وألسنتِهم، وقوميَّاتِهم، وطبقاتِهم، ووظائفِهم، مِن قَبل، واليوم، وغَداً، وعلى مدَار الأزمنَةِ والعصُور هم في نُقصَانٍ، وهلَاكٍ، وضيَاع مُستمر، استمرارهم في الإعراضِ عن الحقِّ المنزَّلِ .. هم في

خُسرِ ونُقصَانٍ، وضياعٍ في أمورِ دينِهم، ودُنياهم، وآخِرتهم .. ومَا مِن يومٍ يأتُون عليه إلا وهم في نُقصَانٍ عمَّا كانُوا عليه مِن قَبل .. واللهُ تعالى قد أقسَمَ بالعَصْرِ على هذا .. وهذَا يَستدعي من الناسِ كل النَّاسِ أن يُعلنوا النَّفيرَ، وأن يقفُوا مع أنفُسِهم موقفَ جِدٍّ وتَساؤل، ومحاسَبَة .. وأن يدقُّوا ناقُوس الخَطَر .. يبحثُون عن المخرَجِ والسبيلِ مما هم فيه من خُسرَانٍ، وضَياعٍ، وانحدَارٍ نحو الهاويةِ لا يتوقَّف .. قبل فوَاتِ الأوَان، وقبلَ حلُول أوانِ النَّدَم، ولاتَ حِين مَنْدَم!

7- [إِلَّا]؛ أدَاةُ استثناءٍ جاءَت بعدَ عمُومٍ؛ تُفيدُ التَّخصيصَ، والحَصْرَ، والقَصْرَ .. أي أن الناسَ كلهم في خُسْرٍ، ونُقْصَانٍ، وضَيَاعٍ " إلَّا " .. مَا أجملها وما أبلغها مِن أدَاةٍ في هذا الموضع .. فهي بمثَابة مَنفَذٍ للنَّجَاةِ مِن ظُلمة ووحْشَةِ الطريقِ والحيَاةِ .. بمثابَةِ الأمَلِ والمنجَاةِ من الهلَكَةِ لمن أحسَن التَّعلُّقَ، والاستضاءَةَ بها .. هي بمثابَةِ حبلٍ مَتينٍ يتدَلَّى مِن على سَفينَةٍ تتلاطَمُها الأمواجُ الهائجة .. لَا مَنْجَاةَ لأحَدٍ إلا مِن تَعلَّقَ بذلك الحبلِ المتين .. الكُلُّ ـ لا محالَةَ ـ يَسيرُون نحوَ الهاويَةِ، والهلاكِ، والخُسران .. ولَا مَنَاص لهم مِن هذا المآلِ الرَّهيبِ والمخيف .. " إلَّا " .. هذه هي أداةُ الاستثنَاءِ، فما هو المستَثنَى مِن ذلك العُمُوم؟!

8- [الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]؛ هؤلاء هُم المستَثنُون من الخُسرانِ، والهلاكِ .. الذين جمعُوا في أنفسِهم بين الإيمانِ، والعمَلِ الصَّالح، جمعوا بين الاعتقَادِ بالإيمانِ، والعمَلِ بالإسلامِ .. الإيمانُ باللهِ، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، والْيَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ .. وبكلِّ ما هو غيبٌ ممَّا أخبرَ به اللهُ تعالى في كتَابِه الكريم، أو أخبرَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم في سنَّتِه المطهَّرَةِ .. والعمَلَ بالصَّالحاتِ الظاهِرَةِ مِنها والباطِنَةِ .. الأعمالُ القلبيَّةُ، والظاهرُ منها على الجوَارِح .. وبخاصَّة منها فرائضُ وأركان الإسلامِ: إقامَةُ الصلاةِ، وإيتَاءُ الزَّكاةِ، وصومُ رمضَان، وحجُّ البيتِ لمَن استطاعَ إليه سبيلاً .. كما جاءَ ذلك في حديثِ

جبريل عليه السلام وسؤالِه للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلامِ، والإيمانِ، فقال:" يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ، فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبِيلًا، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فَعَجِبْنا له يَسْأَلُهُ، ويُصَدِّقُهُ، قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإيمانِ، قالَ: أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، قالَ: صَدَقْتَ ..."متفق عليه. لا يكفي إيمانٌ مِن غيرِ عملٍ صَالِحٍ، وانقيَادٍ ظاهِرٍ .. كما لَا يكفي عملٌ صالحٌ من غيرِ إيمانٍ .. إذْ لا بُدَّ ـ ليستقيمَ البنَاءُ، ويقوَى على مواجهَةِ التحديَّات، وينالُ القبولَ في السَّماءِ ـ من أن يجتمعَا معًا، وينطلقَا مِن مِشكاةِ جسَد واحِدٍ؛ إيمانٌ وعَمَلٌ، وعملٌ وإيمانٌ، مِن دُونِ أن يُفرّقَ بينهما .. أما أولئك الذين فرَّقُوا بين الإيمانِ والعملِ بالصَّالحاتِ .. وجعلُوا العملَ مُغَايراً للإيمانِ .. وقالوا: يكفي لنجاةِ المرءِ أن يؤمِنَ، ويُصدقَ بقلبِه، وإن لم يأتِ بشيءٍ مِن الأعمالِ الصالحةِ .. ومهمَا كانت جوارِحُه الظاهرة شارِدَةً عن الطاعَةِ، والانقيادِ، ومُعلنَةً الحربَ على اللهِ، ورسولِه، والمؤمنين .. فهؤلاء هم المرجئةُ الضُّلَّال؛ الذين قَد ضَلُّوا، وأضَلُّوا، وخالفوا بقولِهم هذا منطُوقَ نُصوص الكتابِ والسنَّةِ، ومفْهُومَها .. وناقَضُوا مبدَأ التلازم والترَابُط، والعلاقة المتبادَلةِ بين الباطِنِ والظاهِرِ .. بينَ القَلبِ، والجوارِح .. وقتلُوا في الأمَّةِ روحَ العملِ والجهَادِ!

9- [الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]؛ لا يُسَمَّى العملُ عملاً صالحاً إلا إذَا توفَّرَ فيه شَرطان: أن يكونَ العملُ مَشرُوعاً، ومَسنوناً؛ موافقاً للكتابِ والسُّنَّة .. فيخرجُ من العملِ الصالح كلُّ بدعةٍ في الدِّين، كما قال صلى الله عليه وسلم:" مَن أحْدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليسَ منه فَهو رَدٌّ "مسلم. وفي رواية:" مَن عَمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمْرُنا فَهو رَدٌّ "مسلم. وأن

يكونَ خالِصاً لوجهِ اللهِ تعالى، لا تشوبُه شائبةُ شِرْكٍ ولا رِياءٍ، كما قال تعالى:[فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً]؛ موافقاً للكتابِ والسنَّةِ، [وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً]الكهف:110. شرطُ الإخْلاصِ. وفي الحديثِ القُدسي:" قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ "مسلم.

10- [الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]؛ فإن قِيل: الإيمانُ اعتقادٌ، وقَولٌ، وعملٌ .. كما هو قولُ السلفِ الصَّالح .. وإن كان العملُ إيماناً، ومِن الإيمانِ .. فعلامَ فرَّقَ النصُّ بينهما فقال تعالى:[الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]، فجعلَ الإيمانَ غير العمَلِ الصَّالح .. ؟!أقول: التفريقُ هنا ليسَ للتغايُرِ .. وإنما للتَّخصيصِ، ومِن قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لبيانِ أهميةِ العمَلِ بالنسبةِ لقضيةِ الإيمانِ، فخصَّ العملَ بالذِّكرِ، لبيانِ أهميتِه في الإيمانِ، ولبيَانِ أن الإيمانَ لا يُقبل مِن غيرِ عملٍ، كما في قوله تعالى:[وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ]البينة:5. فقوله تعالى:[لِيَعْبُدُوا اللَّهَ]؛ يدخلُ في معناه إقامَةُ الصلاةِ وإيتاءُ الزَّكاة .. ومعَ ذلك خُصَّت إقامَةُ الصلاةِ بالذِّكرِ، وكذلك إيتاءُ الزَّكاةِ، مِن قَبيل عطفِ الخاصِّ على العامِّ .. لبيانِ أهميتهما، وفضلهمَا مِن مجموعِ ما يدخلُ في معنَى العبادَةِ .. فإقامةُ الصلاةِ ليسَت شيئاً آخَر مُغايراً لمعنَى العبادَة .. بل هي العِبادَةُ، ومِن العبادَةِ العامَّةِ والشامِلةِ لجميعِ ما يحبهُ اللهُ تعالى من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرَةِ والباطِنَةِ .. ومَا يُقال في الصَّلاةِ بالنسبةِ للعبادَةِ، يُقال في العملِ الصَّالح بالنسبة للإيمانِ، ونحوه قوله تعالى:[حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى]البقرة:238. فالصلوَاتُ تدخلُ فيها يَقيناً الصلاةُ الوسطَى، والتي هي صَلاةُ العَصْرِ .. وإنما خُصَّت الصلاةُ الوسْطَى بالذِّكرِ لبيانِ أهميتها، وفضلِها، مِن قَبيلِ عَطفِ الخاصِّ على العَامّ .. وليسَ من قَبيلِ المغَايرَة، وأنها شيءٌ آخَر غير " الصَّلَوَاتِ "!

11- [الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]؛ هذا لأنفُسِهم .. وهو هامٌّ جداً في عمليةِ البِناءِ، والتربيَةِ، والتَّزكيَةِ .. للقيامِ بما يجبُ لغيرِهم .. وما للآخَرين عليهم مِن حَقٍّ .. فلا يمكنُ أن يَقومُوا بواجبِ، [وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]، إلا بعدَ أن يستوفوا في أنفُسِهم عمليَّةَ التربية والتَّزكية والبنَاء .. ويحقِّقُوا في أنفُسِهم:[الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]. وهي عمليةٌ قائمةٌ ومستمرّةٌ لا تتوقَّفُ ولا تَنقطعُ، حتى تنقَطعَ حياةُ المرءِ ذاته .. فالمرءُ إلى آخِرِ دقيقَةٍ من حياتِه ـ ومهمَا بلغَ من العُمُرِ، وأوتي مِن العِلمِ ـ يحتاجُ إلى التزكيَةِ، والتربيَةِ، وتَهذيبِ النَّفسِ من العوالِقِ، والشوائبِ، والعوائِقِ!

12- [وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ]؛ يَنصحُون أنفُسَهم والآخَرين باتباعِ الحقِّ، وملازَمَتِه، ونصرتِه، وعدمِ الالتفاتِ عنه إلى ما سواه مهمَا عظُمَت تكاليفُ الالتزامِ به .. فإن تكاليفَ التَّخَلِّي عن الحقِّ، والانصرافِ عنه إلى ما سَواه أعظَمُ كلفةً وأعظمُ ضَريبةً .. مآلاتُه تُفضِي لَا محالَةَ إلى الضياعِ، وخُسرانِ الدنُيا والآخِرَة .. وأعظَمُ الحقِّ، وأعلاهُ، ومِيزانُه، الذي يَتواصون به، ويحرصُون عليه، ويحضُّون على التزامِه، والتمسكِ به؛ كتابُ اللهِ، وسُنَّة رسولِه صلى الله عليه وسلم، وفهمهما على ضَوءِ فَهمِ السَّلفِ الصَّالح في القُرونِ الثلاثةِ الأولى المشهُود لها بالخيريَّةِ والفَضْل .. كما في الحديث:" إنِّي قد خلَّفْتُ فيكم شيئَيْنِ لن تَضِلُّوا بعدَهما أبداً ما أخَذْتُم بهما، أو عمِلْتُم بهما: كتابَ اللهِ، وسُنَّتي، ولن يتفرَّقَا حتَّى يَرِدَا عليَّ الحوضَ "؛ أي هما باقيَان في الأمَّةِ، باقية حجتهمَا على الناسِ إلى أن يرِدَا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على الحوضِ يومَ القِيامَةِ. وفي حديثٍ آخر:" فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُمْ بَعدِي فسَيَرَى اخْتلافًا كثيرًا، فعليكُمْ بِسُنَّتِي وسنَّةِ الخُلفاءِ المهديِّينَ الرَّاشِدينَ، تَمسَّكُوا بِها، وعَضُّوا عليْها بالنَّواجِذِ ". وسُئِلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ:" قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ

يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ "متفق عليه. أي تَضعفُ ذممهم، ويَفشُوا فيهم الكذبُ، وشهادَةُ الزُّور .. فهذه وصيةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ أنعم وأكرِمْ بها مِن وصيَّةٍ ـ لكلِّ مَن جاءَ ويجيءُ بعدَه، وإلى يومِ القِيامَةِ .. فهنيئاً لمن تمسَّك بها، وأوْصَى بها غيرَه، وعضَّ عليها بالنَّواجِذ.

13- [وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]؛ على الحقِّ، وعلى نصرتِه، وتحملِ تبعَاتِه .. وعلى مَا قَد يُصيبُهم بسببِ اتباعِهم للحقِّ، وتمسكِهم به، ونُصرَتِهم له .. فلا تقومُ للحقِّ قائمة مِن غيرِ جِهَادٍ .. ومِن غيرِ صَبرٍ على الجهادِ .. فمن تابعَ الحقَّ، وجاهدَ في سبيلِه فإنه مُبتلَى لا محالَة، ولَا بُدَّ له من الصبرِ على ما يُصيبُه .. ويُقَال أيضَاً هو تواص بالصبرِ على الأمرِ والتَّكاليفِ .. وصبر على النَّهي، وحبْسِ النَّفْسِ عن المحظُوراتِ .. وصَبر على البَلاءِ الذي يُصيبُ المؤمنَ في نفْسِه، ومالِه، وأهلِه .. وهذه أمورٌ لا يَقوَى المرءُ على مواجهتِها، والقيامِ بمتطلباتِها إلا بالصَّبرِ، والتواصِي المستمرِّ بالصَّبرِ .. واحتسَابِ الأجْرِ على الصَّبْرِ.

14- [وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]، تكرار كلمة " وَتَوَاصَوْا " أكثر مِن مرةٍ في آيةٍ واحدةٍ؛ يأتي لبيانِ أهمية التواصِي والنَّصيحَةِ في حياةِ وعقيدةِ ودينِ المسلمين، وفي علاقتِهم بعضهم ببعضٍ .. فالمسلمُ إمَّا أنه نَاصحٌ وإما أنَّه منصوحٌ .. ولَا يجوزُ أن يخرجَ عن هذَين الوصفَين .. كما في الحديث الصحيح:" الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ، ولِكِتَابِهِ، ولِرَسولِهِ، ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وعامَّتِهِمْ "مسلم. وقوله " الدِّينُ النَّصِيحَةُ "؛ فاللامُ في كلمةِ " الدِّين "؛ تُفيدُ العمُومَ، والشمولَ، والاستغراقَ؛ أي الدِّينُ كله النصيحَة .. فلا دِينَ مِن غيرِ نصيحةٍ، وتَناصُحٍ .. والنصيحةُ للهِ؛ تكونُ بعبادَتِه وتَوحيدِه، وتحبيبِ الخلْق به سُبحانَه .. والنصيحةُ لكتَابِه؛ تكونُ بتلاوتِه وتدبرِه، وبيانِ أحكامِه، وتَعليمِه، وبذلِه لطلَّابِه، والعمَلِ بما فِيه، والتحاكمِ إليه .. والنصيحةُ لرسولِه صلى الله عليه وسلم تكونُ بتوقيرِه، وتَعظيمِه،

وطاعَتِه، ومُتابَعةِ سُنَّتِه، وبالتحاكُمِ إليه وإلى سُنَّتِه .. والنصحيةُ لأئمةِ المسلمِين وولاتِهم تكونُ بتوقِيرهم، وطاعَتِهم في المعروفِ، وفِيما ليس فيه مَعصية، ونصرتهم في الحقِّ، والدعاءِ لهم، وأمرِهِم بالمعروفِ، ونهيهم عن المنكرِ .. وتعريفهم بما ينفعُهم، وما يضرُّهم .. والنَّصيحةُ لعامَّةِ المسلمين تكونُ بإرادَةِ الخيرِ لهم في أمورِ دينِهم ودُنياهم .. وبالحرصِ على بذلِه وإيصالِه لهم، ودَفْعِ الشرِّ عنهم، وكل ما قد يتَسبَّب لهم بالأذَى والضَّرَر .. قدْرَ المستطَاع .. وفي حديثٍ آخَر عن جرير بن عبد الله، قال:" بَايَعْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ: والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "البخاري.

15- [وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]، رغم أهمية ومكانَةِ النصيحَةِ في دينِ اللهِ .. إلا أنه ينبغي أن تُحاطَ بجملةٍ من الشروطِ والآدابِ، مِنها: أن لا تؤدِّي النصيحةُ إلى تفويتِ ما هو أكثر مِنها نفعَاً، أو تحقيق ضَرَرٍ أكبر مِن الضررِ الذي يَنبغي أن يُزَال بالنصيحَةِ .. فالمنكرُ يُنكر ويُزالُ، لكن لا يُنكرُ ولا يُزالُ بمنكرٍ أكبر مِنه. ومِنها: أن تُحاطَ النصيحةُ بالرفقِ مَا أمكنَ لذلك سَبيلاً .. كما في الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّه "البخاري. وقال صلى الله عليه وسلم:" إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ، ويُعطِي على الرفقِ ما لا يُعطي على العنفِ، ومَا لا يُعطي على ما سواهُ "مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلا شانَه "مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم:" مَن يُحرَمِ الرِّفقَ يُحْرَمِ الخيرَ "مسلم. وقال صلى الله عليه وسلم:" ادعوا النَّاس، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّرُوا "مسلم. لا يَنبغي للمسلمِ أن يُراهنَ، ويتترَّس بالنصيحةِ، وأنه على حقٍّ، وأن على المنصوح أن يُصغِي إليه، ويطيعَه ويتابعه فيما يَنصحه .. بعيداً عن معَاني الرفق والحكمة في الكلمةِ، وتوجيهِ الخِطابِ، قال تعالى:[وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ]آل

عمران:159. ومنها: إن كان الخطأ خاصَّاً، لا يُجاهَر به، يُستحسَن أن تكونَ النصيحةُ سِرَّاً بين الناصح والمنصوح .. وإلا أصبحت النصيحةُ فضِيحةً وليسَت نَصيحةً، وهي حينئذٍ أقربُ للردِّ والرفضِ مِنها للقبولِ .. عن أم الدرداء رضي الله عنها، قالت:" من وعَظَ أخاهُ سِرَّاً فقد زَانَه، ومَن وعظَهُ علانيَّةً فقَد شَانَه ". وقال سليمان الخواص:" مَن وعَظَ أخاه فِيما بينه وبينه فهي نصِيحةٌ، ومَن وعظَهُ على رؤوسِ الناسِ فإنَّها فَضِيحةٌ ". وهذا معنى قد أُثِرَ عن كثيرٍ من السلفِ الصَّالح.

16- [إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]؛ عودة على ذِي بدءٍ، وتذكير بخلاصَةِ ما تقدَّم ذِكْرُه .. فإن المستثنين من مجموعِ الخاسِرين الهالِكين .. لا بدَّ مِن أن تتوفرَ فيهم صِفاتٌ أربع:[الَّذِينَ آمَنُوا]، [وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ]، [وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ]، [وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]، لَا تُغنِي ولا تُجزئُ صفةٌ عن صفَةٍ .. فالإنسانُ بهذهِ الصفاتِ الأربعة مجتمعةً هو المستثنَى من مجموعِ الخاسِرين الهالِكين، ومِن صِفةِ الخُسرانِ .. وبالانتهاءِ من هذه الكلمات والوقفاتِ ينتهي ـ بفضلِ الله تعالى ـ الحديثُ عن سورةِ العصْرِ .. هذه السورة العظيمة التي قال عنها الشافعي رحمه الله:" لو مَا أنزلَ اللهُ حجةً على خلقِه إلَّا هذه السورة لكفتْهُم .. ولو تدبَّر الناسُ هذه السورة لوَسِعَتهم ".

عبد المنعم مصطفى حليمة

" أبو بصير الطرطوسي "

1445/7/5 هـ 2024/1/17 م

www.abubaseer.bizland.com